كعب بن مالك الأنصاري

بقلم : يحيى الجبوري

لرسول الله صلى الله عليه وسلم شعراء كثار يتفاوت حظهم من الشهرة والتقدير حسب صلتهم برسول الله وجهدهم في سبيل الدين الاسلامي ، فمنذ أن هاجر الرسول الكريم إلى المدينة وبدأ الصراع العلني بين رسول الله وأصحابه المهاجرين وأنصاره في المدينة ، وبين قريش في مكة ومن والى قريشاً من يهود منافقين وأعراب مشركين وغير أعراب متمسكين بجاهليتهم النكراء واعتقاداتهم الضالة وحميتهم العصبية ، سواء كان ذلك في مكة أو الطائف أو القرى اليهودية منذ ذلك الحين أتخذ الشعر سبيله في الحرب بين الايمان والشرك ، فوقف شعراء الرسول يبشرون بالدعوة ويهاجون المشركين في مكة وغير مكة ، ويذبون عن أعراض المسلمين . وقد برز في المدينة ثلاثة نفر : هم شعراء المسلمين أول الدعوة : حسان ابن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة .

ثم تكاثر شعراء المسلمين كلما ثبتت للاسلام قدم ، وكلما انتشرت كلمة الله ، فدخل في دين الله شعراء البادية ، فكان كعب بن زهير صاحب البردة من شعراء المسلمين ، وكذلك كان العباس بن مرداس ، وبجير بن زهير والنابغة الجعدي وغيرهم كثير .

ونحاول هنا أن نرسم صورة مجملة عامة لشـــاعر الرسول : كعب بن مالك الأنصاري مؤكدين على مواقفه في الاسلام وجهده في سبيل الله .

وكعب بن مالك بن أبي كعب الخزرجي الأنصاري السلمي الذي يكنى أبا عبد الله أو أبا عبد الرحمن ، من سراة الناس ووجوه قومه وذوي السابقـة في الاسلام ، كانت أول صلة كعب بالاسلام يوم العقبـة الثانية حيث وفد مع السبعين من أهل المدينة على رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين بايعوه على أن يمنعوه ما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم [1] .

وحين هاجر الرسـول إلى المدينة وآخى بين المهاجرين والانصار ، آخى الرسول بين كعب بن مالك وبين طلحة بن عبيد الله . كان كعب مؤمناً قوي الايمان تقياً شديد التقى وكان أثيراً عند رسول الله يحبه ويدعو له بالخير ويشجعه على جيد الشـــعر ، يروى انه نهض إلى الرسول يستأذنه في هجاء أبي سفيان حين جاء الخبر بهجائه رسول الله ، فقال كعب ائذن لي ـ . فقال : أنت الذي تقول : « همت » قال نعم يا رسول الله أنا الذي أقول :

همت سخينة أن تغالب ربها ... وليغلبن مغـالب الغـلاب

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما ان الله لم ينس ذلك لك » [2] وكان رسول الله يقوّم من شعر كعب ويوجهه فقد روى أنه خرج على الناس وفيهم كعب بن مالك ينشد ، فلما رآه كأنه انقبض فقال : ما كنتم فيه ؟ فقال كعب كنت أنشد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشد فأنشد حتى أتى على قوله :

مجالدنا عن جذمنا كل نخمة ... مذربة فيها القوانس تلمع

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيصلح أن تقول : مجالدنا عن ديننا ؟ فقال كعب

---

(١) السيرة ق ١ ص ٤٤١ ـــ ٤٤٣ وجمهرة أنساب العرب ص ٣٠١ .

(٢) الأغاني ج ١٥ ص ٢٨ .

نعم [1] فكان كعب ينشد كذلك وكان الرسول الكريم كثيراً ما يستنشد كعباً فينشده فيقول الرسول : لهذا أشد عليهم من وقع النبل [2] ومن تشجيع الرسول لكعب أنه سأله يوماً فقال : يا رسول الله : ما ذا ترى في الشعر ؟ فقال الرسول الكريم : « المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه » . [3] وكان عليه السلام يثني على شعر كعب فيقول : « إنك لحسن الشعر » [4] .

وكانت صلة كعب بالرسول قوية متينة فهو قريب منه يسمع الحديث فيحفظه فيحدث به فهو لذلك معدود من رواة الحديث [5] . ولم يكن كعب ورعاً مؤمناً وحسب ، بل كان فارساً من فرسان المسلمين فما كان كصاحبه حسان بن ثابت الذي يشارك المسلمين باللسان ثم إذا قامت الحرب التجأ إلى أطمه (فارع) مع الصبيان والنسوة [6] ، بل كان شجاعاً مقداماً يقول القول مقروناً بالفعل فقد كان له صبر مشهود وبلاء عظيم يوم أحد ، حتى أنه جرح أحد عشر جرحاً . وكان من اكرام رسول الله له أن لبس لأمته ولبس كعب لأمة الرسول صلى الله عليه وسلم وكانت صفراء .

وقد شارك كعب في أكثر الحروب الاسلامية [7] إلا أنه تخلف عن غزوة تبوك ، وكان لهذا أسوأ الأثر في نفسه ، فحزن حزناً شديداً ، روى ابن هشام في السيرة قال : « وقد كان تخلف عنه رهط من المنافقين ، وتخلف اولئك الرهط الثلاثة من المسلمين من غير شك ولا نفاق : كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، فقال رسول الله

---

(١) السيرة ق ٢ ص ١٣٦ .
(٢) الاغاني ج ١٥ ص ٢٩ ط سامي .
(٣) الاغاني ج ١٥ ص ٢٨ .
(٤) الاستيعاب في معرفة الاصحاب ق ٣ ص ١٢٢٥ .
(٥) الاغاني ١٥/٢٦ .
(٦) ينظر حديث صفية بنت عبد المطلب عن حسان يوم الخندق في الاغاني ٤/١٦٥ .
(٧) الاستيعاب ١/٢٢٣ وقد اختلف في حضوره يوم بدر .

صلى الله عليه وسلم لأصحابه : لا تكلمن احـــداً من هؤلاء الثلاثة » [1] . ومكث كعب لا يكلمه أحد خمسين يوماً ، عانى فيها كثيراً من الآلام . وقد دفعه قومه أن يتوسل بعذر لدى رسول الله ، قالوا : « لو اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض ما يعتذر به الناس عذرك » فقال : « اني لأصنعهم لساناً وأقدرهم على ذلك ، ولـكن والله لا أعتذر اليه بكذب وان عذرني فيطلعه الله عليه » [2] ، ومكث كذلك حتى نزلت فيهم التوبة في قوله تعالى : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله إلا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » [3] .

لقد ناضل كعب بسيفه ولسانه مع من ناضل من شعراء المسلمين ، وصور الأحداث بروح إسلامية ظاهرة التأثر بالدين الاسلامي الحنيف ، ففي بدر يجيب على قصيدة ضرار بن الخطاب فيقول [4] :

عجبت لأمر الله والله قادر ... على ما أراد ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقي معشرا ... بغوا وسبيل البغي بالناس جائر

* * *

وفينا رسول الله والأوس حوله ... له معقل منهم عزيز وناصر
وجمع بني النجار تحت لوائه ... يمشون في الماذي والنقع ثائر
فلما لقيناهم وكل مجاهد ... لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لارب غيره ... وإن رسول الله بالحق ظاهر

---

(١) السيرة ق ٢/٣١٠ ومغازي رسول الله ص ٣٤٤ .
(٢) طبقات الشعراء ص ١٨٠ وكذلك امتاع الاسماع ١/٤٨٤ — ٤٨٨ .
(٣) سورة التوبة آية ١١٨ .
(٤) السيرة ٢/١١٤ .

إلى أن يقول :

وكان رسول الله قد قال اقبلوا ... فولوا وقالوا أنما أنت ساحر

لأمر أراد الله أن يهلكوا به ... وليس لأمر حمّه الله زاجر

ويتضح في هذه القصيدة فهم كعب وتأثره بالمعنى العام للقرآن الكريم ، فقوله « إنما أنت ساحر » متأثر بقوله تعالى : « وقال الكافرون هذا ساحر كذاب » [1] وقوله : « وليس لأمر حمّه الله زاجر » متأثر بمعنى الآية الكريمة : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له » [2] أو قوله تعالى : « ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » [3] .

وقد روى له ابن اسحق شعراً في رثاء عبيدة بن الحارث الذي قطعت رجله في بدر [4] وله كذلك شعر يخاطب فيه بعض أحياء العرب الذين قاتلوا المسلمين في بدر [5] :

ألا هل أتى غسان في نأى دارها ... وأخبر شيء بالأمور عليها

بأن قد رمتنا عن قسى عداوة ... معد معاً جهالة وحليمها

لأنا عبدنا الله لم نرج غيره ... رجاء الجنان إذ أتانا زعيمها

نبي له في قومه أرث عزة ... واعراق صدق هذبتها أرومها

إلى آخر ما يقول : وله في هذا اليوم — يوم بدر — قطعة يوعد فيها أبا سفيان ، بأن قريشاً ستذل وتطلع عليها خيول المسلمين من (كداء) بنصر من عند الله [6] :

* * *

فما ظفرت فوارسكم ببدر ... وما رجعوا إليكم بالسواء

فلا تعجل أبا سفيان وأرقب ... جياد الخيل تطلع من كداء

بنصر الله روح القدس فيها ... وميكال فيا طيب الملاء

---

(١) سورة ص آية ٤ .
(٢) سورة الرعد آية ١١ .
(٣) سورة الانعام آية ١٤٧ .
(٤) السيرة ٢/٢٤ .
(٥) السيرة ٢/٢٥ .
(٦) نفس المصدر ص ٢٥ ـ ٢٦ .

وكعب هنا يسبق حساناً في نبوءته بفتح مكة والطلوع على قريش من كداء ، ولعل المسلمين كانوا منذ البداية يمنون النفس بفتح مكة وإخضاع أهلها ، ويعدون لهم العدة ، فيتوعدون قريشاً ورئيسها أبا سفيان ، فلا غرو أن يذكر ذلك كعب ويذكر كذلك حسان هذه الأماني [1] .

أما في أحد ، فشعر كعب اكثر منه في بدر ، فله قصيدة طويلة ذكر ابن اسحق انه اجاب بها هبيرة بن ابي وهب ، ولم يرد له ذكر فيها ، وورد اسم عبد الله بن الزبعري ، حيث كان قد فخر عليه عبد الله ، ومطلع القصيدة هو [2] :

الا هل اتى غسان عنّا ودونهم من الأرض خرق سيره متنعنع

ويفخر فيها بقومه ويذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانته في نفوسهم ، وطاعة امره :

مجالدنا عن ديننا كل نخمة مذربة فيها القوانس تلمع
وفينا رسول الله نتبع امره إذا قال فينا القول لا نتطلع
تدلى عليه الروح من عند ربه ينزل من جو السماء ويرفع
نشاوره فيما نريد وقصرنا اذا ما اشتهى انا نطيع ونسمع
وقال رسول الله لما بدوا لنا ذروا عنكم هول المنيات واطمعوا
وكونوا كمن يشرى الحياة تقرباً الى ملك يحيا لديه ويرجع
ولكن خذوا اسيافكم وتوكلوا على الله ان الأمر لله اجمع

والقصيدة من جياد القصائد العربية وقد حفلت بالمعاني الاسلامية الرفيعة ، وقد

---

(١) وذلك في قصيدة حسان يوم الفتح حيث يقول :

عدمنا خيلنا ان لم تروها تثير النقع موعدها كداء

ديوان حسان ص ١ ـ ١٠ وانظر السيرة ٢/٤٢١ ـ ٤٢٤ .

(٢) السيرة ٢/١٢٢ — ١٣٥ .

استطاع كعب ان يمثل هول المعركة ، وما اصاب المسلمين من بلاء ، واعتذر لذلك بقلة عدد المسلمين مع كثرة ما حشد الاعداء :

فجئنا الى موج من البحر وسطه ... احابيش منهم حاسر ومقنع
ثلاثة آلاف ونحن نصية ... ثلاث مئين ان كثرنا واربع
نغاورهم تجري المنية بيننا ... نشارعهم حوض المنايا ونشرع

ويخاطب فيها ابن الزبعرى :

نفرت عليّ ابن الزبعرى وقدسرى ... لكم طلب من آخر الليل متبع
فسل عنك في عليا معد وغيرها ... من الناس من اخزى مقاما واشنع
ومن هو لم تترك له الحرب مفخرا ... ومن خدّه يوم الكريهة اضرع ... الخ

ومن خير ما قال كعب في احد ، رثاؤه لحمزة ومن سقط شهيداً من المسلمين قال [1] :

نشجت وهل لك من منشج ... وكنت متى تذكر تلجج
تذكر قوم اتاني لهم ... احاديث في الزمن الاعوج
فقلبك من ذكرهم خافق ... من الشوق والحزن المنضج
وقتلاهم في جنان النعيم ... كرام المداخل والمخرج

ويصف غدر وحشي بحمزة ، وكيف صرعه بحربة لامعة كالشهاب :

فكلهم مات حرّ البلاء ... على ملة الله لم يحرج
كحمزة لما وفى صادقا ... بذي هبّة صارم سلجج
فلاقاه عبد بني نوفل ... يبربر كالجمل الادعج

ولكعب في رثاء حمزة اكثر من قصيدة وكلها صادقة اللوعة واضحة الحزن شديدة التحسر .

اما في الخندق ، فقد وصف المشركين وتألبهم على دين الله وكيف تمسك المسلمون

(١) نفس المصدر ٢/١٣٨ — ١٣٩ .

بدينهم فلم يغيروا ولم يبدلوا ، قال [1] :

لقد علم الاحزاب حين تألبوا ... علينا وراموا ديننا ما نوادع
اضاميم من قيس بن عيلان اصفقت ... وخندق لم يدروا بما هو واقع
يذودوننا عن ديننا ونذودهم ... عن الكفر والرحمن راء وسامع
اذا غايظونا في مقام اعاننا ... على غيظهم نصر من الله واسع
وذلك حفظ الله فينا وفضله ... علينا ومن لم يحفظ الله ضائع
هدانا لدين الحق واختاره لنا ... ولله فوق الصانعين صنائع

والملاحظ هنا ان المعنى الديني بدأ يتضح اكثر ، وفي هذا الشعر جانب من التعليل والمحاجة والتوكل على الله فأنه : (ومن لم يحفظ الله ضائع) .

ويبكي كعب قتلى مؤتة بقصيدة شجية صادقة الحزن [2] : فيها تصوير دقيق لآلامه النفسية وخلجاته وقد مزج كل ذلك بنفس ديني مؤمن :

نام العيون ودمع عينك يهمل ... سحّا كما وكف الطباب المخضل
في ليلة ردت عليّ همومها ... طوراً احنّ وتارة اتململ
واعتادني حزن فبت كأنني ... ببنات نعش والسماك موكل
وكأنما بين الجوانح والحشى ... مما تأوبني شهاب مدخل
وجدا على النفر الذين تتابعوا ... يوماً بمؤتة اسندوا لم ينقلوا
صلى الأله عليهم من فتية ... وسقى عظامهم الغمام المسبل

اما بعد النصر بفتح مكة ، فقد قال كعب قصيدته بعد الفراغ من حنين حين اجمع رسول الله ﷺ السير الى الطائف [3] :

---

(١) السيرة ٢/٢٦٣ .
(٢) المصدر السابق ٢/٣٨٥ .
(٣) السيرة ٢/٤٧٩ — ٤٨٠ والحماسة ـ ابن الشجري ص ٤٣ ومغازي الرسول ص ٢٣٩ .

قضينا من تهامة كل ريب وخيبر ثم اجمنا السيوفا

نخبرها ولو نطقت لقالت قواطعهن دوسا او ثقيفا

وذكر ابن سيرين قال : « فبلغني ان دوسا انما اسلمت فرقاً من قول كعب (قضينا من تهامة ..) فقالت دوس : انطلقوا فخذوا لأنفسكم ، لا ينزل بكم ما نزل بثقيف » [1]

وفي هذه القصيدة يذكر رسول الله ﷺ ويدعو الناس الى الدخول في دين الله ليكونوا منهم او ان يحكموا السيف في رقابهم ان تمسكوا بضلالاتهم :

وانا قد اتيناهم بزحف يحيط بسور حصنهم صفوفا

رئيسهم النبي وكان صلبا نقي القلب مصطبراً عزوفا

رشيد الأمر ذو حكم وعلم وحلم لم يكن نزقا خفيفا

نطيع نبينا ونطيع ربّاً هو الرحمن كان بنا رؤوفا

فان تلقوا الينا السلم نقبل ونجعلكم لنا عضداً وريفا

وان تأبوا نجاهدكم ونصبر ولا يك امرنا رعشاً ضعيفا

نجالد ما بقينا او تنيبوا الى الاسلام اذعاناً مضيفا

الى آخر هذه القصيدة التي تحافظ على هذا البناء السليم والنسج المحكم الجميل والروح الاسلامي الظاهر .

وبعد مصاب المسلمين بوفاة رسول الله ﷺ يقف كعب ليرثي النبي محمدا ، بروح المؤمن الذي وعى مفاهيم الدين الحنيف ، وملأ الايمان قلبه فهو يبكيه دون يأس أو جزع ، بل يذكر فضل الله على المؤمنين ، إذ نجاهم من ظلام ولظى [2] ؟

يا عين فابكي بدمع ذرى لخير البرية والمصطفى

(١) الاستيعاب ١/٢٢٣ .

(٢) ابن سعد — الطبقات الكبير ق ٢ جـ٢ ص ٩٢—٩٣ .

على خير من حملت ناقـة واتقى البرية عنـد التقى

* * *

نخص بما كان من فضـله وكان سراجاً لنـا في الدجى
وكان بشيراً لنا منذراً ونوراً لنا ضوؤه قد أضـا
فانقـذنا الله في نوره ونجى برحمته من لظى

وقد عاش كعب زمناً أدرك فيه الفتنة التي قامت ضد عثمان ، وقد وقف في ذلك على مجلس قومه الأنصار ، يقرعهم لقعودهم عن نصرة خليفة المسلمين قال : (١)

من مبلغ الأنصـار عني آية رسـلا تقص عليهم التبيـانا
أن قـد فعلتم فعلة مذكورة كست الفضوح وابدت الشنآنا
بقعـودكم في داركم وأميركم تحشى ضواحي داره النيرانا
بينا يرجى دفعكم عن داره ملئت حريقـاً كابيا ودخانـا

الى آخر القصيدة التي يلوم فيها الأنصار الذين قعدوا عن دفع الشر والشغب . وكذلك أدرك كعب الخلاف الذي نشب حول الخلافة بين عليّ ومعاوية ، فكان عثماني الهوى منحرفاً عن علي بن أبي طالب ، وقد خاطبه في أمر عثمان وقتله ظلما .

وكانت وفاته في سنة خمسين — وقيل في ثلاث وخمسين — وهو ابن سبع وسبعين وقد ذهب بصره (٢) .

رحم الله كعباً ، فقد جاهد في سبيل الله بلسانه وسيفه ، وكان فارساً من فرسان المسلمين ، شديداً على الكافرين ، حريصاً على أن ينتشر الدين .

يحيى الجبوري

(١) الأغاني ١٥ — ٢٧ ط ساسي ، ١٦/٢٢٨ ط الدار .
(٢) الاستيعاب ١/٢٢٣ وخزانة الأدب ١/ ٢ ومعجم الشعراء ص ٢٢٩ .